

المحاضرة 6

نقاد المهجر

كان المهجريون أدباء وشعراء ونقاد جميعهم من أصحاب المواهب المتعددة، وموهبة الشعر هي الموهبة الأولى، التي ظهرت عندهم، وعرفوا بها، لكن كثيراً منهم مارس النقد، وإذا كان الشاعر ناقدًا بطبيعته لأنه يقوم شعره وينظر فيه، ويتخير ما ينشره، فإن هناك مقالات نقدية عرفت لبعضهم، وهناك كتب نقدية أيضًا عبروا فيها عن رؤيتهم للشعر من جهة الموضوعات والأفكار والمعاني، ومن جهة التعبير واللغة.

لكننا إذا بحثنا عن من يمكن أن يطلق عليه لقب الناقد اصطلاحًا، فإننا نجد ميخائيل نعيمة هو أولى المهجريين بهذا اللقب؛ لأنه هو صاحب كتاب الغربال، الذي صدر سنة 1923 م وفيه قدم ميخائيل نعيمة ما يمكن أن يطلق عليه نظريته النقدية.

ميخائيل نعيمة وكتابه الغربال:

أولاً- حياة الناقد وتكوينه الفكري: ولد الناقد في قرية بسكنتا في لبنان، وتقع على هضبة صنين، وينساب من تحتها وادٍ اسمه واد الجماجم، ولد ميخائيل نعيمة في هذه القرية عام 1889م، وتعلم في مدرستها الابتدائية، وظهر حبه للعلم وتفوقه في مرحلة مبكرة، فانتدبتة مدرسة دار المعلمين الروسية في الناصرة بفلسطين؛ ليدرس فيها ثم أرسلته ليدرس في روسيا عام 1906م.

وهناك تزود ميخائيل نعيمة بزيادة ثقافية متنوعة الألوان من الأدب الروسي، والآداب العالمية الأخرى، وبرع في الكتابة والنظم باللغة الروسية، وقد نظم قصيدته النهر المتجمد بهذه اللغة، ثم ترجمها إلى العربية، وفي عام 1911م توجه إلى واشنطن في الولايات المتحدة، ودرس الحقوق بجامعة، ونال شهادتها عام ألف وتسعمائة وستة عشر، وفي عام ألف وتسعمائة وثمانية عشر جند في الجيش الأميركي، بحكم نظام الجندية الإجباري على الرغم منه، وذهب إلى ساحة القتال في فرنسا.

وفي عام 1919م عاد من الحرب؛ ليعمل بمحل تجاري في نيويورك، وهناك اتصل برفاقه الذين كانوا معه في مدرسة الناصرة الروسية من المهجريين، مثل: نسيب عريضة وعبد المسيح حداد، كما اتصل بجبران خليل جبران، ورفاقه الذين تألفت منهم الرابطة القلمية، وانتخب

ميخائيل نعيمة أمينًا لسرها، وظلت الرابطة إلى عام 1931م، حيث توفي عميدها جبران خليل جبران.

وفي العام التالي لوفاة جبران عاد ميخائيل نعيمة إلى قريته بسكنتا في لبنان. أما النشاط العلمي والتألفي والأدبي لميخائيل نعيمة، فقد أُلّف في المهجر مسرحية بعنوان: (الآباء والبنون)، كما صدر كتابه (الغربال)، سنة 1923، فمثل هو وكتاب الديوان، الذي كان العقاد والمازني قد أصدراه سنة 1921 مرحلة مهمة جدًا في النقد الأدبي الحديث.

ومن مؤلفاته أيضًا ديوان شعره (همس الجفون)، وكتاب عن حياة جبران، وكتابه (زاد المعاد)، و(البيادر) وغيرها، وقد نظم الشعر بالعربية من عام 1917 إلى عام 1920، كما نظم الشعر بالإنجليزية أيضًا، وله نتاج قصصي يعالج فيه الأمراض الاجتماعية، ويهاجم العادات والتقاليد الشرقية، التي لا يرضاها بأسلوب ساخر، وفي قصة له بعنوان (لقاء)، عالج ما كان يؤمن به من تناسخ الأرواح، وتتلخص فلسفة ميخائيل نعيمة في كتابه (زاد المعاد)، الذي عبر فيه عما يؤمن به من آراء وأفكار، تتعلق بالوجود والحياة والموت، وكان مؤمنًا بما يسمى وحدة الوجود.

أما أسلوب ميخائيل نعيمة، فهو يتمتع بالعبارة الناصعة والديباجة المشرقة، والبيان الصافي، وكان في شعره ونثره مصورًا بارع التصوير، قادرًا على وضع الكلمة في موضعها المناسب، وقد تأثر بأفكار جبران، وبأسلوبه أيضًا، على هذا النحو يبدو لنا ميخائيل نعيمة شاعرًا وناقداً وفيلسوفًا. يقول د. محمد مندور إن تكوين ميخائيل نعيمة الروحي والثقافي تكوين غني معقد، فهو يجمع في ثقافته بين الشرق وتراث الغرب، بل يجمع بين التراث الأوروبي الأمريكي والتراث الروسي بسحره الصقلي، وروحانيته الناقدة، التي نحسها عند أعلامه، وبخاصة عند تليستوي وبستوفسكي، اللذين يلوح لنا أن ميخائيل نعيمة قد تمثل روحيهما، منذ شبابه الغض.

ثانياً- كتاب (الغربال) ومحتواه: تضمن الغربال نظرية النقد، كما يراها ميخائيل نعيمة، وقد نبه د. محمد مندور إلى أن صاحب الغربال لم يؤلفه دفعة واحدة وفقاً لمنهج مرسوم، وإنما هو مجموعة من المقالات النقدية، التي نشرها المؤلف في الصحف، أو كتبها كمقدمات لبعض مؤلفاته، مثل: مقاله عن الرواية التمثيلية العربية، فهي مقدمة لمسرحيته المسماة الآباء والبنون.

ويقول مندور: ليس في هذا الأمر من أن يكون الكتاب قد صدر على هيئة مقالات متفرقة، ليس في هذا ما ينقص من قيمة الكتاب وأهميته في شيء، ويذكر أن هناك كتب كثيرة صدرت بهذه الطريقة، ككتاب (أوقات الفراغ)، للدكتور محمد حسين هيكل و(ساعات بين الكتب)، و(مطالعات في الكتب والحياة) و(الفصول) لعباس محمود العقاد، وكذلك (حصاد الهشيم) للمازني، وكذلك (حديث الأربعاء)، للدكتور طه حسين، و(كتاب في الميزان الجديد)، و(نماذج بشرية) و(قضايا جديدة في أدبنا الحديث)، للدكتور محمد مندور نفسه. وهذا يدل على أن الرؤية النقدية عند نعيمة لم تكن واضحة، أو مكتملة ولم يعبر عنها صاحب هذا الكتاب مرة واحدة، وإنما صدور مقالات على فترات متباعدة يجعل هذه النظرية النقدية عرضة، لأن يقال فيها: إنها لم تكن مكتملة في نفس صاحبها. لكن كتاب (الغربال) بما تضمنه من آراء وأفكار، يمثل أهم عمل نقدي صدر عن أدباء المهجر وشعرائه ونقاده.

محتوى كتاب الغربال: يضم هذا الكتاب إحدى وعشرين مقالة، بعضها خصص للهجوم العنيف على الأدب العربي التقليدي، الذي يمثله المحافظون من أمثال شوقي وحافظ إبراهيم والمنفلوطي وغيرهم، وقد وصف ميخائيل نعيمة هذا الأدب بأنه متمزمت ومتحجر وجامد، وذلك في مقال بعنوان: (الجباحب)، وعنوان آخر أو مقال آخر بعنوان (نقيق الضفادع)، ويبدو أن كلمة الجباحب، كما تدل عليه في معاجم اللغة المراد بها النار، وكأنه يريد بهذا العنوان ما تفعله النار من الإضاءة، أو من أكل ما يقدم لها، وكأنه يريد أن يقدم رؤية جديدة للأدب، تمحو ما كان في نظره جامدا ومتخلفا، ولا يصلح للحياة.

وفي الكتاب أيضًا مقال عن الزحافات والعلل وهو في نقد عروض الشعر العربي، كما ورد عن الخليل بن أحمد، وفي الكتاب مقالات تمثل النقد التطبيقي، تعرض المؤلف فيها لبعض الأعمال الأدبية التي كانت قد ظهرت في وقته، مثل مقال عن القرويات، وهو ديوان لرشيد سليم الخوري، طبع سنة 1922، ومقال عن الريحاني في عالم الشعر، والثالث عن ديوان نشره جبران خليل جبران بالإنجليزية سنة 1920.

ومقال آخر عن قصة (ابتسامات ودموع)، التي ترجمتها مي زيادة عن كتاب لمكس مولر، ومحاضرة لها أيضًا كانت ألقته بعنوان: غاية الحياة، ومقال عن ديوان (أغاني الصبا)، الذي

نشره محمد الشريفى، سنة 1921، ومقال عن كتاب (النبوغ)، الذي صدر لمؤلفه لبيب الياشبي، عام 1921، ومقال عن ترجمة الشاعر خليل مطران لمسرحية (تاجر البندقية) لشكسبير، ومقال عن الجزئين اللذين صدرا عن كتاب (الديوان) للأستاذ العقاد والمازني، ومقال عن العواصف لجبران خليل جبران، ومقال عن كتاب (الفصول) للأستاذ عباس محمود العقاد، ومقال عن ديوان كان مخطوطاً للشاعر نسيب عريضة، وهو ديوان (الأرواح الحائرة)، ثم مقال بعنوان الدرّة الشرقية، وفيه ينقد أحمد شوقي نقداً لاذعاً.

كما تضمن الكتاب بعض المقالات النقدية، تحدث فيها عن الغربة ومحور الأدب والرواية التمثيلية العربية، والمقاييس الأدبية والشعر والشاعر، ثم مقال قصير يدعو إلى ضرورة الترجمة عن الآداب الأجنبية، بعنوان فلنترجم، بهذا العرض لما تضمنه كتاب (الغربال) من عناوين، يظهر لنا أن الكتاب لم يقدم نظرية نقدية متماسكة، تبدو في كل الكتاب أو كل مقالاته أو كل عناوينه، إنما هناك اتجاهات متعددة في هذا الكتاب، ويمكن أن تكون المقالات التي توجه فيها بالنقد لأدب المحافظين، والتي نقد فيها أيضاً العروض الخليلي يمكن بالإضافة إلى بعض المقالات، التي تحدثت عن المقاييس النقدية، يمكن أن تكون هي التي تمثل النقد الحقيقي، والرؤية النقدية لميخائيل نعيمة في هذا الكتاب.

ثالثاً- تشابه مشروع الديوان مع مشروع الغربال: من أهم ما عبر عنه كتاب (الغربال) هو تلاقي نظرة مؤلفه مع نظره العقاد وشكري والمازني، فالأجهاان بيدوان متقاربان تقارباً كبيراً، والكتابان تضمننا نقداً لاذعاً للمحافظين، وثورة على ما يسمى بأدب التقليد، والكتابان يتضمنان دعوة إلى أدب جديد، ومؤلفا الكتاب الأول الديوان حصلا من الثقافة التراثية العربية، والثقافة الغربية ما أهلها أن يكونا ناقدين كبيرين، وشاعرين متميزين بالإضافة إلى زميلهما الثالث عبد الرحمن شكري، كما بينا ذلك في الدروس السابقة، ومؤلف الغربال أيضاً صاحب ثقافة عربية، وثقافة أجنبية، وله حس راقٍ وذوق عالٍ في دراسة الأدب ونقده، وقد حياكل من الجانبين صاحبه، وأثنى على اتجاهه في نقد الأدب وإبداعه.

ثناء ميخائيل نعيمة على جماعة الديوان: كتب نعيمة في (غرباله) مقالاً يثني فيه على المجددين المصريين، ويهاجم فيه المحافظين ومما جاء فيه قوله: ألا بارك الله في مصر، فما كل ما تنخره ثرثره، ولا كل ما تنظمه بهرجه، وقد كنت أحسبها وثنية تعبد زخرف الكلام وتأله

رصف القوافي، فكم زمرت لبهلوان وطبلت لمشعوذ، وطابت لكروان، غير أني عرفت اليوم بالحس ما كنت أعرفه أمس بالرجاء، عرفت أن مصر مصران لا واحدة، مصر ترى البعوضة جملاً والمدرة جبلاً، ومصر ترى البعوضة بعوضة والمدرة مدرة، ومصر لها ميزان بكفة واحدة ومقياس بطرف واحد، ومصر لها ميزان بكفتين ومقياس بطفين، فهي تفصل بين الرطل والدرهم، وتميز بين الفتر والفرسخ.

إن مصر هذه مصر الثانية قد قامت اليوم تناقش الأولى الحساب، فانتصبت وإياها أمام محكمة الحياة، وسلاحها الوجدان الحي ومحكمها الحق؛ لأنها تقول لها: إما أن تثبت لي حقا باعتباري فأسكت، أو أريكي كل ما فيكي من زيف فتسكتين.

وبعبارة أخرى: إن مصر تصفي اليوم حسابها مع ماضيها، هذا كله يريد به ميخائيل نعيمة الثورة التي قام بها العقاد وشكري والمازني على أدب المحافظين، ودعوتهم إلى أدب جديد، فهو يرى أن أدب المحافظين يمثل ثرثرة وبهرجة، وزخرفاً من الكلام لا قيمة له، ورسفاً من القوافي، وأن الشعراء والأدباء السابقين على جماعة التجديد يستحقون أن يناقشوا الحساب، وأن يقرأوا للمجددين بفضلهم على الأدب والنقد، فإذا ميخائيل نعيمة يتبنى وجهة المجددين المصريين العقاد وشكري والمازني.

ثناء العقاد على الغربال: فقد رد الأستاذ العقاد هذه التحية بمثلها في المقدمة التي كتبها لكتاب (الغربال)، وفيها يقول العقاد: لو لم يكتب قلم نعيمة هذه الآراء، التي تتمثل للقارئ في هذه الصفحات لوجب أن أكتبها أنا، فأما وقد كتبها وحمل عبئها، فقد وجب على الأقل أن أكتب مقدمتها، ثم يقول عن مضمون الكتاب: والحق أنني قد وقعت من قراءة هذه الصفحات على قرابة صحيحة، وجوار ملاصق في الحي الذي أسكنه في هذه الدنيا الأدبية الجديدة، رأيت قلماً جاهداً في طلب الشعر الصحيح، شعر الحياة لا شعر الزخافات والعلل. ورأيته ينعي على الشعر الرث، الذي تركنا بلا شعر، ولم يبق في حياتنا ما ليس منظوماً، سوى عواطفنا وأفكارنا، ورأيته يريد من الشاعر أن يكون نبياً، وينكر أن يكون بهلواناً، ويريد من الشعر أن يكون إلهاماً، وينكر أن يكون ضرباً من الحجل والجمز، والمشى على الأسلاك، والانتصاب على الرأس، ورفع الأثقال بالأسنان، ولف الرجلين حول العنق، إلى ما هنالك من

الحركات التي يجيدها القردة أيما إجادة، من هذا يتضح الاتفاق في المنزع، والاتفاق في المشرب، والاتفاق في الواجهة التجديدية، التي يريدها الفريقان للأدب العربي. وكلمة الغربال التي اختارها ميخائيل نعيمة عنواناً لكتابه، لها دلالة؛ لأن الغربال آلة تستخدم في خرز الحبوب الصحيحة السليمة الصالحة، من الحبوب غير الصالحة الفاسدة، يستخدم هذا الغربال في تنقية القمح والأرز والشعير وغيرها، وكأن ميخائيل نعيمة يريد بهذه الكلمة الدلالة على منهج يصفي الأدب العربي الحديث، فيستبقي منه الصالح، وينفي منه الفاسد، والصالح في رأي نعيمة هو الصالح في رأي العقاد، والفاسد في رأيهما هو ما حملا عليه حملة عنيفة، وهو أدب المحافظين.

منهج النقد عند ميخائيل نعيمة: يمكن اعتباره منهجا تأثريا وفق ما قاله هو نفسه: إن لكل ناقد غرباله، لكل موازينه ومقاييسه، وهذه الموازين والمقاييس ليست مسجلة لا في السماء ولا في الأرض، ولا قوة تدعمها وتظهرها قيمة صادقة سوى قوة الناقد نفسه، وقوة الناقد هي ما يطن به سطره من الإخلاص في النية، والمحبة لمهنته، والغيرة على موضوعه، ودقة الذوق، ورقه الشعور، وتيقن الفكر، وما أوتي به بعد ذلك من مقدرة البيان؛ لإيصال ما يقوله إلى عقل القارئ وقلبه.

فالناقد الذي توفرت له مثل هذه الصفات لا يعدم أناساً ينضوون تحت لوائه، ويعملون بمشيئته فيستحبون ما يحب، ويستقبحون ما يقبح، وهو وراء منضدته سلطان تأتمر بأمره، وتمتذهب بمذهبه وتتحلى بجلاه، وتتذوق بذوقه ألوف من الناس، إذا طرق سبيلاً سلوكه، وإذا صب نقمته على صنم حطموه، وإذا أقام لهم إلهًا عبدوه وخروا له وسبحوه.

ويظهر جليا أنه منهج تذوقي تأثري شخصي، فلكل ناقد استعداده، وعلى حسب قوة هذا الاستعداد وقدرة هذا الناقد على إقناع قرائه، يؤثر فيهم ويكون له جمهور يتبع رأيه ويسلك طريقه، ويركز ميخائيل نعيمة على أهمية الموهبة، والاستعداد الفطري عند الناقد، فيقول: غير أن الناقد طبقات، كما أن الشعراء والكتاب طبقات، فما يقال في الواحد منهم لا يصلح أن يقال في كلها، -يريد كل الطبقة أو الطبقات-، إلا أن هناك خلة لا يكون الناقد ناقدًا إذا تجرد منها، وهي قوة التمييز الفطرية، تلك القوة التي توجد لنفسها قواعد، ولا توجد لها القواعد، والتي تبتدع لنفسها مقاييس وموازن، ولا تبتدعها المقاييس والموازن.

فالناقد الذي ينقد حسب القواعد، التي وضعها سواه لا ينفع نفسه ولا منقوده، ولا الأدب بشيء، إذ لو كانت لنا قواعد ثابتة لتمييز الجميل من الشنيع، والصحيح من الفاسد لما كان من حاجة إلى النقد والناقدين، بل كان من السهل على كل قارئ أن يأخذ تلك القواعد، ويطبق عليها ما يقرؤه، لكننا في حاجة إلى الناقدين؛ لأن أذواق السواد الأعظم منا مشوهة بخرافات رضعناها من ثدي أمسنا، وترهات اقتبلناها من كف يومنا.

فالناقد الذي يقدر أن ينتشلنا من خرافات أمسنا، وترهات يومنا، والذي يضع لنا اليوم محجة؛ لندركها في الغد هو الرائد الذي سنتبعه، والحداد الذي سنسير على حدوه.

إدًا هناك مقاييس لكن هذه المقاييس ليست ثابتة وليست جامدة، كما يرى ميخائيل نعيمة، ويرى أن الناقد يسير وراء مقاييسه هو لا مقاييس وضعها غيره، فالناقد في رأيه إذا استحسّن أمرًا لا يستحسنه؛ لأنه حسن في ذاته فقط بل؛ لأنه ينطبق على آرائه في الحسن، وكذلك إذا استهجن أمرًا فلعدم انطباق ذلك الأمر على مقاييسه الفنية، فللناقد آراؤه في الجمال والحق، وهذه الآراء هي نبات ساعات جهاده الروحي، ورصيد حساباته الدائمة مع نفسه تجاه الحياة ومعانيها

مقاييس الأدب في الغربال:

أما المقاييس العامة التي رأى ميخائيل نعيمة أن الأدب ينبغي أن يسير وفقها فهي:

أولاً- التعبير عن الحال: فحاجتنا إلى الإفصاح عن كل ما ينتابنا، من العوامل النفسية من رجاء ويأس، وفوز وفشل، وإيمان وشك، وحب وكره، ولذة وألم وحزن وفرح، وخوف وطمأنينه، وكل ما يتراوح بين أقصى هذه العوامل وأدناها من الانفعالات والتأثيرات.

ثانيًا- الوظيفة التنويرية: فحاجتنا إلى نور نتهدي به في الحياة، وليس من نور نتهدي به غير نور الحقيقة حقيقة ما في أنفسنا، وحقيقة ما في العالم من حولنا، فنحن وإن اختلف فهمنا عن الحقيقة لسنا ننكر أن في الحياة ما كان حقيقة في عهد آدم، ولا يزال حقيقة حتى اليوم، وسيبقى حقيقة حتى آخر الدهر.

ثالثًا- الوظيفة الجمالية: فحاجتنا إلى الجميل في كل شيء، ففي الروح عطش لا ينطفئ إلى الجمال، وكل ما فيه مظهر من مظاهر الجمال، فإن وإن تضاربت أذواقنا في ما نحسبه جميلًا، وما نحسبه قبيحًا لا يمكننا التعامي عن أن في الحياة جمالًا مطلقًا، لا يختلف فيه ذوقان.

رابعاً-الوظيفة الإيقاعية: فحاجتنا إلى الموسيقى، ففي الروح ميل عجيب إلى الأصوات والألحان لا ندرك كنهه، فهي تهتز لقصف الرعد ولخريف الماء، ولحفيف الأوراق، لكنها تنكمش من الأصوات المتناثرة، وتأنس بما تألف منها، ثم يبين ميخائيل نعيمة طبيعة هذه المقاييس، وأنها تتفاوت بتفاوت الأفراد في الدرجة لا في الجوهر، فيقول: هذه بعض حاجاتنا الروحية، إن لم تكن أهمها وهي معنا في كل حين، فهي وإن تنوعت في الناس بتنوع الأفراد والشعوب والأزمنة والأقطار، لا تتنوع بجوهرها، بل بدرجات شدتها وقوة شعورنا بها، وهي المقاييس الثابتة، التي يجب أن نقيس بها الأدب، فتكون قيمته بمقدار ما يسد من بعض هذه الحاجات أو كلها، ويكون أثمه أجلاه بياناً، وأغناه حقيقة وأطلاله رونقاً، وأشجاءه وقعاً

قضايا النقد في كتاب الغربال:

-**قضية موسيقى الشعر:** هجم ميخائيل نعيمة على العروض العربي، وهذا الأمر لم يقبله أكثر النقاد، والشعراء المهجريين، ومنهم ميخائيل نعيمة نفسه لم يخرجوا خروجاً كاملاً عن إيقاع الشعر العربي، ونظامه الموسيقى، وإن جددوا فيه، وأي فنٍّ من الفنون لا بد أن تكون له قواعد تضبطه، ولا يمكن أن تلغى كل القيود، وكل القواعد في فن من الفنون.

-**قضية اللغة:** حيث إن ميخائيل نعيمة في مقاله نقيق الضفادع، هاجم الأدباء والنقاد، الذين وصفهم بأنهم متمتون في اللغة وقواعدها وعلومها، ويرى في تزمتهم هذا ما يشبه نقيق الضفادع، ويرى أن اللغة ما هي إلا مجرد رموز، كغيرها من الرموز التي استخدمتها، ولا تزال تستخدمها الإنسانية، كوسيلة للإفصاح عما يختلج في النفس من فكر أو إحساس، وحسبها أن تستطيع أداء هذه الوظيفة، بل من الخير تبسيط تلك الرموز إلى أقصى حد مستطاع؛ لأنها كلما ازدادت تبسيطاً، ازدادت قدرة على تحقيق وظيفتها في نقل الفكر، والإحساس من نفس إلى نفس.

ومن حسن الحظ أن ميخائيل نعيمة وإخوانه من شعراء المهجر، لم يخرجوا على اللغة العربية خروجاً كاملاً ولا واضحاً، وإنما كانت لهم جرأة في استخدام بعض التراكيب، أو بعض الألفاظ المخالفة للقياس أحياناً، لكن لغتهم ظلت لغة عربية سليمة مشرقة في أغلب الأحوال، ووجدنا من العقاد موقفاً من هذه القضية في المقدمة، التي كتبها ل(لغربال)، فمع

ثنائه على المؤلف وثنائه على وجهته، قال: أما كلمتي أنا في خلاف صغير بيني وبين المؤلف، لا أعرضه للمناقشة إلا؛ لأن الاتفاق بيننا في غير هذا الموضوع عظيم.

وزيدة هذا الخلاف أن المؤلف يحسب العناية باللفظ فضولاً، ويرى أن الكاتب أو الشاعر في حل من الخطأ ما دام الغرض، الذي يرمي إليه مفهومًا، واللفظ الذي يؤدي به معناه مفيدًا، ويعن له أن التطور يقضي بإطلاق التصرف للأدباء في اشتقاق المفردات وارتجالها، وقد تكون هذه الآراء صحيحة في نظر فريق من الزملاء الفضلاء، ولكنها في نظري تحتاج إلى تنقيح وتعديل، ويؤخذ فيها بمذهب وسط بين التحريم والتحليل.

ويضيف العقاد قائلاً: فرأيت أن الكتابة الأدبية فن، والفن لا يكتفى فيه بالإفادة، ولا يغني فيه مجرد الإفهام، وعندني أن الأديب في حل من الخطأ في بعض الأحيان، ولكن على شرط أن يكون الخطأ خيراً وأجمل وأرقى من الصواب، وأن مجارة التطوير فريضة وفضيلة، ولكن يجب أن نذكر أن اللغة لم تخلق اليوم، فنخلق قواعدها وأصولها في طريقنا، وأن التطور إنما يكون في اللغات التي ليس لها ماضٍ وقواعد وأصول، ومتى وجدت القواعد والأصول، فلماذا نحملها أو نخالفها، إلا لضرورة قاصرة لا مناص منها، هذا كلام العقاد.

ثم يقول: ومع هذا يلوح لي أن الخلاف بيننا خلاف في التطبيق لا في الجوهر؛ لأن المؤلف الألمي يعرف العلاقة بين اللفظ والمعنى أحسن تعريف، فلا يجوز باللفظ ولا بالمعنى عن حده في البلاغة، وله في هذه المجموعة أقوال في هذا المعنى منها قوله في بلاغة شكسبير: إن بين أفكاره وأكسيتهما اللغوية ترابط هو غاية في الدقة والفن، وهذا الترابط هو ما يكسبها جلالها الملوكي، وسلاستها السحرية، ورنتها الموسيقية، ومن ترجمها دون جلالها وسلاستها، ورنتها يكون كمن أخذ من الشجرة ساقها، بعد أن عراه من الفرع والغصون والأوراق، وليس يقول قائل من عشاق البلاغة اللفظية غير ذلك في هذا الصدد، ولا أكثر من ذلك.

- الفصحى والعامية: يرى ميخائيل نعيمة أن أكبر عقبة صادفها في تأليف الآباء والبنين، وهي مسرحيته وسيصادفها كل من طرق هذا الباب سواه، هي اللغة العامية، والمقام الذي يجب أن تعطاه في مثل هذه الروايات يقول: وفي عرني وأظن الكثيرين يوافقون على ذلك، أن أشخاص الرواية يجب أن يخاطبوا باللغة التي تعودوا أن يعبروا بها عن عواطفهم وأفكارهم، وأن الكاتب الذي يحاول أن يجعل فلاحًا أميًا يتكلم بلغة الدواوين الشعرية، والمؤلفات اللغوية

يظلم فلاحه، ونفسه، وقارئه، وسامعه، بل يظهر أشخاصه في مظهر الهزل، حيث لا يقصد الهزل، ويقترف جرماً ضد فن جماله في تصوير الإنسان، حسبما نراه في مشاهد الحياة الحقيقية.

وهناك أمر آخر جدير بالاهتمام متعلق باللغة العامية، وهو أن هذه اللغة تستر تحت ثوبها الحشن، كثيراً من فلسفة الشعب واختباراته في الحياة، وأمثاله واعتقاداته، التي لو حاولت أن تؤديها بلغة فصيحة، لكنت كمن يترجم أشعاراً وأمثالاً عن لغة أعجمية.

ثم يقول: وربما خالفنا في ذلك بعض الذين تأبطوا القواميس، وتسלحوا بكتب الصرف والنحو كلها قائلين: إن كل الصيد في جوف الفرى، وأن لا بلاغة أو طلاوة في اللغة العامية، لا يستطيع الكاتب أن يأتي بمثلها بلغة فصحي، يقول: فلهؤلاء ننصح أن يدرسوا حياة الشعب ولغته بإمعان وتدقيق.

ثم يقول ميخائيل نعيمة الرواية التمثيلية بين كل الأساليب الأدبية، لا تستطيع أن تستغني عن اللغة العامية، وإنما العقدة هي أننا لو اتبعنا هذه القاعدة، لوجب أن نكتب كل رواياتنا باللغة العامية، إذ ليس بيننا من يتكلم عربية الجاهلية، أو العصور الإسلامية الأولى.

وذلك يعني انقراض لغتنا الفصحى، ونحن بعيدون عن أن نبتغي هذه الملمة القومية، فأين المخرج يقول: وعبثاً بحثت عن حل لهذا المشكل، فهو أكبر من أن يحله عقل واحد، وجل ما توصلت إليه بعد التفكير، هو أن أجعل المتعلمين من أشخاص الرواية يتكلمون لغة معربة، والأमीين اللغة العامية، لكنني أعترف بإخلاص أن هذا الأسلوب لا يحل العقدة الأساسية، فالمسألة لا تزال بحاجة إلى اعتناء أكبر من رجال اللغة وكتابها.

وحسب نعيمة في هذا الكلام أنه يشير إلى مشكلة وعقدة، تواجه من يكتبون الروايات، عندما يجعلون عامة الناس يتكلمون في رواياتهم، فهل ينطقونهم باللغة الفصحى، ويظهر هؤلاء العامة على نحو مخالف لحقيقتهم في الحياة، أم ينطقونهم باللغة العامية أو اللهجة العامية، وهو يدرك أن الروايات إذا تحولت كلها إلى لهجة عامية، أو كثرت فيها العامية كثرة مفطرة، فإن هذا يهدد اللغة الفصحى، ويرى أن في هذا مصيبة قومية لا يدعو هو إليها، ولا يريد، ويدعو أصحاب العقول والمتخصصين أن يبحثوا معه عن حل لهذه المشكلة.